

الفصل الثالث عشر

إدراك الكلى

يكتسب العقل المعرفة الأولية عن طريق الحواس ، ثم تكوين المدركات الحسية ، ثم يستطيع أن يستغنى عن المدركات الحسية الموجودة في الخارج ، ويتذكرها عن طريق الصور العقلية . فالطفل الصغير يقدم إليه كوب اللبن أو قطعة الحلوى ويتذوقهما ويدرك شكلهما وطعمهما ، ثم تشتت نفسه ما ارتاحت إليه ، فيطلب ذلك اللبن أو تلك الحلوى اللذين تذوقهما ، ففي ذهنه صورتها كما جربهما ، بمعنى أنه يطلب ذلك اللبن الذي شربه ، موضوعاً في نفس الإناء الذي رآه ، مصحوباً بنفس الحرارة التي كان عليها ، وفي المكان الذي تذوقه فيه . فالمدرك الحسى معرفة لشيء خارجي محدود جزئى خاص ، والصورة العقلية استرجاع ذلك الشيء الخارجى المحدود الخاص .

وللعقل القدرة على إدراك المعانى الكلية العامة ، التى تنطبق على كثير من الجزئيات المحدودة ، فيدرك معنى اللبن إطلاقاً ، أو الحلوى إطلاقاً ، دون أن يقصر ذلك المعنى على اللبن الذى شربه ، والذي كان موضوعاً في إناء رآه ، والذي كان مصحوباً بحرارة معينة ، والذي تناوله في مكان معين ، بل اللبن عامة ، كثيراً كان أم قليلاً ، ساخناً أم بارداً ، فى أى مكان من الأمكنة ، وفى أى وعاء .

فالمدركات الحسية جزئية ، تحد بالأشياء ذاتها التى نمسها ولا تتعدها ، بينما

المعنى الكلى ، معنى مجرد عام ، مجرد لأنه يشتمل على صفات منتزعة عن
مشخصاتها ، وعام لأنه ينطبق على أفراد كثيرين من نوعه . فالمعاني الكلية نصل
إليها بالتجريد والتعميم .

التجريد :

إن ما يصل إلى الذهن من الشيء الخارجى هو عدة صفات لهذا الشيء .
ليس إلا ، أما الشيء نفسه فموجود فى الخارج وله حقيقة فى ذاتها لا ندركها .
والمدرک الحسى عبارة عن مجموع صفات هذا الشيء التى تصل إلى الذهن . فإذا
رأيت شخصاً ، فما يصل إلى ذهنك منه ، هو اللون والشكل الخارجى والحجم ،
ولكن هذه الصفات لا تنفصل فهذا الشخص بصفاته كل لا يتجزأ عن المدرک
الحسى . من بين هذه الصفات أن له شعراً « ذهبى اللون » فهو فى الذهن شعر
لونه ذهبى . الشعر واللون لا ينفصلان فى الواقع ، لأنك لا تجد شعراً لونه له ،
بل يجب أن يكون أسود أو أبيض أو من أى لون آخر . ومن ناحية أخرى
لا تجد لوناً لا يقع فى مادة من المواد ، كاللون فى قطعة الخشب أو الشعر أو القماش
أو الخائط . . . ولكننا بواسطة العقل نستطيع أن نتصور اللون فقط بدون المادة
الموجود فيها ، والتى يجب أن يكون موجوداً فيها ، ولا يكون فيها إلا بالفعل ؛
فإذا أدركت شجرة لون أوراقها أخضر ، فإنك تتصور — من المدرک الحسى
للشجرة — اللون الأخضر فقط ، أى تستبقى فى ذهنك اللون الأخضر فقط ،
بينما اللون لا ينفصل فى الواقع عن ورقة الشجرة الموجود فيها . إذاً هناك صورة
مدركة حسية فى الذهن ، هى عبارة عن ورقة الشجرة مضافاً إليها اللون الأخضر ،
وشكل الورقة ولونها الأخضر لا ينفصلان فى الخارج أو الحقيقة ، فأنت فى

الذهن استطعت أن تفصل اللون عن ورقة الشجرة وتستبقيه بمفرده . هذه العملية العقلية التي استطعت بها أن تفصل اللون عن ورقة الشجرة تسمى : التجريد . فالتجريد هو انتزاع صفة من صفات المدرك على حدة ، منفصلة عن باقي الصفات . فالورقة التي تقرأ فيها الآن ، ذات لون أبيض ، وشكل مستطيل ، وسمك معين ، ولكنك تستطيع أن تجرد اللون الأبيض من الورقة التي تقرأ فيها ، وأن تنتزع شكلها المستطيل ، وأن تدرك سمكها فقط . . . ونحن في الواقع لا ندرك البياض بمفرده ، بل ندرك الورقة وقد اجتمعت فيها جميع الصفات التي ذكرناها . وهناك فرق بين التجزئ والتحليل والتجريد . فالتجزئ هو تقسيم الشيء الواحد إلى عدة أجزاء ، مثل تجزئ الكتاب إلى مائة ورقة ، والرغيف إلى نصفين . والتحليل هو الوصول إلى عناصر الموضوع أو المواد التي يتركب منها مثل تحليل الهواء إلى أكسجين وأزوت . ولا يكون التجريد تجزئاً ، ولكنه قد يقترب من التحليل ، ومع ذلك فبينهما فروق ، إذ ليس من الضروري في التجريد أن يعنى الذهن بالبحث عن جميع العناصر التي يتحلل إليها الشيء . وهناك ثلاثة أنواع من التجريد ، فقد تجرد الكيف أو الكم أو العلاقة . فانتزاع صفة اللون من الورقة هو تجريد الكيف ، وتجريد عدد صفحات الكتاب وحجمه هو تجريد الكم ، وتصور النسبة بين الكتاب والمنضدة الموضوع فوقها هو تجريد العلاقة .

وسواء كنا نجرد صفة أم كمًا أم علاقة ، فالعقل يبذل جهداً ، « وينزع » إلى أداء هذا العمل ، فالتجريد بداية لنزوع ، بل هو حركة عقلية . فمعنى « الجاذبية » أنها المجهود الذي نبذله لنقرب منا أو نبعد عنا شيئاً يقاوم القوة التي بها تقارب أو نباعد .

والصفات التي ندركها أثر فينا ، فنعجب بها أو نحتقرها أو نقبل عليها أو نبتعد عنها ؛ فهذه وردة أدرك رائحتها الجميلة ، فجال رائحتها يجعلني أشتاق إليها وأطلبها .
فصفات الأشياء تنتج فينا نوعاً من النزوع أو النشاط لكسبها .
فاذا أعجبتني الصفة ، فإنني أركز فيها « انتباهي » لأن هذه الصفة ستكون موضع العمل مني ، وعلى ذلك فالتجريد يتطلب الانتباه أولاً .
وتتفاوت المعاني المجردة ، فبياض هذه الورقة أقل تجريداً من معنى البياض إطلاقاً ، والبياض أقل تجريداً من معنى اللون ، واللون أقل في درجة التجريد من معنى الصفة

كيف نصل إلى التجريد ؟

هناك ثلاث نظريات يفسر بها التجريد ، ولكل منها وجه من أوجه النقص ، ونحن نسوقها فيما يلي : —

١ — النظرية التي تقول بأن الحواس هي آلات التجريد . فكل حاسة تختص باكتساب نوع من الصفات تمتاز به ولا تشاركها فيه غيرها ، وذلك حين ندرك المحسوسات . فالعين تدرك الألوان ، والأذن الأصوات ، والأنف الروائح ، واللسان الطعوم ، وسطح الجلد الملموسات ، فالإنسان يوزع الصفات ويقسمها ، تبعاً لتقسيم الحواس الطبيعي ، فالجسم آلة خلقت للتجريد ، والحواس مضطرة إلى التجريد بفطرتها ، وإذا لم يكن الأمر كذلك لاختلطت الأشياء بعضها ببعض ، حتى لتدرك العين الروائح والطعوم والمشمومات والأصوات كما تدرك الألوان .

ولا يصلح هذه النظرية لتفسير التجريد إطلاقاً ، فالحواس تفصل صفات الكيف فقط ، وليست كل المعاني المجردة كيفيات ، فهناك معان كثيرة ليست

بصفات ، مثل معنى السببية ، والتبعية ، والجاذبية ، والعديدية ، وهذه العلاقات المختلفة لا تستمد من الحواس . كذلك العين لا ترى اللون فقط ، بل ترى شكلاً بمجموعه ، يحتوى على حجم ولون وسطح وشكل ، وليس من طبيعة العين انتزاع اللون فقط منفصلاً عن الشكل . فإذا صلحت الحواس لتفسير بعض أنواع التجريد الأولية ، فإنها لا تفسر لنا باقى أنواع التجريد .

٢ — النظرية الثانية هى التى تقول بأن الانتباه ، وهو المجهود العقلى الذى يبذله الإنسان حين الإدراك ، أو هو حصر الفكر فى جزء من الحقيقة الخارجية ، بينما تظل باقى الأجزاء مهمة لا يوجه إليها الملاحظ نظره ، هذا الانتباه الذى يضيق دائرة الشعور هو الذى يؤدى إلى التجريد .

والاعتراض على هذه النظرية يقع فى سببين ، الأول أننا إذا كنا نوجه الانتباه نحو فصل جزء من الحقيقة ، وتقطيعها لأنها أكبر من أن تدرك ، فليس التجزئ تجزئاً ، فإذا فصلت يد الشخص عن الجسم ، فليست اليد إلا جزءاً من الجسم ، ولا تعد معنى من معانى الجسمية أو الإنسانية . والسبب الثانى أننا إذا قلنا إن الانتباه يؤدى إلى تحليل الشئ إلى عناصره الأولى ، كالنمو بالنسبة لجسم الإنسان ، فيكون الانتباه مرادفاً إذاً للتجريد ، أو تكون هناك قوة للانتباه ، وقوة أخرى للتجريد ، بينما المجهود العقلى واحد .

٣ — النظرية الثالثة أن أصل التجريد لا يكون فى المدرك الحسى فقط ، ولا فى قوة الانتباه فقط ، بل فى القدرة على الموازنة . وذلك أن العقل لا يفعل شيئاً أمام الشئ « الواحد » الواقع تحت حسه ، ولكن العقل إذا أدرك شيئاً آخر يماثل الأول ، وثالثاً يماثلهما ، فإنه يلحظ اشتراكها فى صفة واحدة ، وينتزعها

منها جميعاً ، عن طريق الموازنة بينها . والموازنة هي انتقال الانتباه من شيء إلى آخر لكشف بعض أوجه الشبه .

ولكن انتزاع الصفة المشتركة بين عدة أفراد متشابهين ، يفرض أن الشيء الذى ندركه يتكون من عدة صفات منفصلة ، وبذلك يتيسر للعقل أن يلحظ هذه الصفات ، وأن يوازن بين الأشياء فيدرك وجه الشبه فى كل منها . والواقع يخالف ذلك ، لأن إدراكنا للشيء الواحد يكون كاملاً ، بحيث تجتمع صفاته كلها دفعة واحدة ، دون أن تكون هذه الصفات منفصلة ، فنحن حين ندرك الصفة الكائنة فى شيء على أنها مماثلة لصفة أخرى فى شيء آخر وثالث ورابع ، يتجه عقلنا إلى أن هذه الصفة « عامة » فى الجميع ، فعملية التجريد لا تفهم بواسطة الحواس أو الانتباه أو الموازنة فقط ، بل لا بد من إضافة عملية التعميم إليها .

التعميم :

المعنى الكلى^(١) هو المعنى العام الذى ينطبق على أفراد كثيرين ، مثل شجرة فإنها تنطبق على آلاف الأشياء الخارجية المعروفة بهذا الاسم ، ومثل إنسان لأنه ينطبق على جميع الناس .

ولأجل أن يطبق العقل المعنى الواحد على عدة أفراد ، يجب أن يلحظ بينهم صفات مشتركة هي التى تجعله يدرج هؤلاء الأفراد تحت معنى واحد . فالمعنى الكلى يدل على صفات مشتركة أولاً ، وعلى صلاحية أفراد كثيرين للاشتراك فى هذا المعنى . فمن الناحية الأولى تسمى هذه الصفات مفهوم^(٢) المعنى ومن الناحية الثانية

Concept . (١)

Compréhension (٢)

يسمى الأفراد الذين ينطبق عليهم هذا المعنى الماصدقات^(١) . وهذا هو تقسيم المناطقة للمعنى الكلى ، فله مفهوم وماصدق . فمفهوم الإنسان الحيوانية والنطق ، وماصدقات الإنسان هم جميع أفراد النوع الإنساني .

كيف نصل إلى تكوين المعنى الكلى ؟

يحسن قبل أن نبحث في تكوين المعنى الكلى ، أن نفرق بينه وبين الصورة المركبة^(٢) التي أراد بعض علماء النفس مثل جالتون أن يوازنوا بينهما . والصورة المركبة هي صورة نحصل عليها من تأمل عدة صور مختلفة لشيء واحد ، فيخرج لنا من جماعها صورة تمثلها جميعاً ؛ مثال ذلك أن جالتون صور الأسكندر بعد رؤيته ست مداليات موجودة في المتحف البريطاني تمثل الأسكندر في أعمار مختلفة من حياته . هذه الصورة نحصل عليها بانتزاع الصفات البارزة المشتركة في عدة مدركات حسية ، ولكنها لا تتعدى هذه المدركات الخاصة ، بحيث إذا أضيف مدرك حسي جديد اضطررنا إلى تغيير الصورة المركبة ، وتعديلها بما يوافق الشيء الجديد . فالصورة المركبة لا تنطبق إلا على العدد المحدود من المحسات المنتزعة منها .

ولكن المعنى الكلى يخالف ذلك ، فمعنى « إنسان » ينطبق على أفراد لانهاية لهم ، على أفراد الإنسان في الماضي والحاضر والمستقبل .

نعود إلى السؤال مرة أخرى ، كيف يتكون المعنى الكلى ؟ إن معارفنا تبدأ في الأصل بالمدركات الحسية الجزئية ، التي تترك وراءها صوراً ذهنية . فنحن نرى هذه الشجرة وتلك وتلك وتلك ، وكل واحدة منها تترك في الذهن

Extension (١)

L'Image composite (٢)

صورة لها ، فكل معرفة كانت في الأصل معرفة الجزئيات ، وبين هذه الجزئيات خلاف في الأعراض ، فشجرة طويلة وأخرى قصيرة ، وثلاثة مورقة ، ورابعة مخضرة ، وخامسة مثمرة ... فكيف نخرج من هذا التعدد إلى الوحدة ، ومن الخلاف إلى الاتفاق ؟

أجاب هاملتون عن هذا السؤال بنظريته المعروفة ، فهو يميز خمس خطوات في تكوين المعنى الكلى : —

- ١ — الأولى الإدراك الحسى للأشياء الخارجية المتكثرة المتعددة .
 - ٢ — الثانية الموازنة بين هذه الأشياء الخارجية لمعرفة الصفات العامة المشتركة بينها .
 - ٣ — الثالثة توجيه الانتباه الذى يركز الذهن فى الصفات التى لحظ الإنسان اشتراكها ، وتجريدها من غيرها .
 - ٤ — الرابعة التأليف بين هذه الصفات المشتركة .
 - ٥ — الخامسة التسمية ، أى وضع اسم لهذه المجموعة المشتركة من الصفات .
- والاسم الذى يتصل بالمعنى أهمية كبيرة فى الخطوات التى تعمل على تكوينه وسنبين هذه الأهمية وقيمة اللغة فى الإدراك الكلى فيما بعد .
- وبين هاملتون هنا أننا نصل إلى التجريد بالموازنة ، وقد اتضح لنا قصور هذه العملية عن الوصول الكامل إلى التجريد . وإذا قلنا إننا ننتزع الصفات المشتركة من بين عدة مدركات حسية ، فالمعنى المنتزع لن يكون إلا « صورة مركبة » محدودة بهذه المدركات الحسية فقط ؛ فنحن فى حاجة إلى تفسير عملية التعميم بغير هذه الخطوات .

والحقيقة أن مشكلة التجريد لا تحل بمفردها ، بل هى عملية لا تنفصل عن

التعميم . فالمعاني الكلية معان مجردة ، وكل معنى مجرد هو معنى عام . وبيان ذلك أن كل معنى عام هو معنى مجرد ، لأنه لا إدراك أن من خصائص المعنى الانطباق على عدد لا نهاية له من الأفراد ، يجب أن ينتزع أو مجرد هذا المعنى من المحسات التي تشمل صفات مشتركة ، والعكس لا تجريد بغير تعميم . وقد يكون عند الحيوان شيء من هذا ، ولكن بصورة محدودة عما هو موجود عند الإنسان ، فالقيل الذي يدرب على حمل الأثقال ، قد تنشأ في ذهنه فكرة الثقل ، ولكنه لا يستطيع أن يمتد في تطبيق هذه الفكرة على الأشياء التي لا يتصل بها ولا تهمه . بينما الإنسان عنده المقدرة على التجريد والتعميم في آن واحد . فإذا جردت اللون الأبيض من هذه الورقة فقط دون أن أفكر في أن اللون الأبيض قد يوجد في أشياء أخرى ، فإن هذا التجريد لا يعدو الحقيقة الجزئية ، ولا يعلو كثيراً فوق الحس ، إذ أن هذه الصفة تظل متصلة بمجموعة الصفات المستمدة من ذلك الشيء . والحقيقة أيضاً أن العقل لا يقف موقفاً سلبياً من الأشياء التي يجردها ، ولكنه يميل إلى النشاط ، ويتجه إلى أن يكون بداية لعمل . ذلك أننا نرد دائماً على مطالب الحياة ، ونحاول أن نسلك دائماً أمام المواقف المختلفة التي تقدمها لنا الظروف الخارجية ، وليس الأصل في الإنسان أن يعمل لكسب المعرفة المجردة الخالصة . فنحن ندرك الأشياء التي نجد فيها فائدة لنا ، ولذلك كان الإدراك الحسي باعثاً إلى النزوع والميل إلى العمل . إذا طلبت من شخص أن يصف لك كوب الماء الذي كان يشرب منه ، أو السكين التي كان يستعملها في تناول الطعام ، أو الأطباق التي كان الطعام موجوداً فيها ، فإنك تدهش لعدم مقدرة على وصفها ؛ ذلك أن الشخص لم يدرك الكوب إلا على أنه يحوى الماء ، ولم يدرك الأطباق إلا على أنها أوعية الطعام ، ولذلك يُعرّف الإنسان الأشياء أولاً

لفائدتها وصلاحيتها للاستعمال ، ولا يبدأ الإنسان في تمييز الصفات المجردة الذاتية المقومة لطبيعة الشيء إلا فيما بعد . ونحن لا نقف من الطبيعة موقف المتفرج دون اهتمام ، بل ننظر إلى الطبيعة بمنظار الحاجة والمنفعة ، ونحاول دائماً أن نطبق سلوكنا ، الذي أفادنا في موقف ، في الظروف الأخرى المشابهة . فالجسم يسلك نفس السلوك في الظروف المتشابهة التي قد تختلف في بعض التفاصيل ، فالإنسان حين يرى وحشاً قد أفلت من قفصه ، ليكون هذا الوحش أسداً أو نمراً أو أى حيوان مفترس ، فإن الإنسان يتخذ وسيلة الهرب ، وفي هذا السلوك الغريزي يجرد الإنسان معنى الخطر ، وهو في نفس الوقت يعمم هذا المعنى ، لأن الخطر سواء أكان عن أسد أو نمر ، فهو خطر بالنسبة له . فمن هذا المثال يتضح لنا تماماً أن « فكرة الخطر » جردت وعممت في آن واحد .

فهو تجريد وتعميم مستمدان بالطبيعة ، وسابقان على كل تفكير . ولكن الإنسان لا يقنع بما تقدمه له الطبيعة ، فهو يفكر ويتأمل ، ويشعر بفائدة هذه الجردات الطبيعية ، فيحاول أن ينسج على منوالها ، مقلداً في ذلك الطبيعة ، وأكبر عون له في هذا التعميم ، هي الألفاظ التي اخترعها الإنسان ليثبت فيها هذه المعاني المجردة .

اللغة والمعنى الكلى :

اللفظ هو رمز نضعه في الاصطلاح لمعنى من المعاني . هذه الرموز ضرورية لوضع أساس الاستقرار في التقدم العقلي ، وذلك لتركيز كل خطوة من سير الذهن ، حتى نستطيع أن نتقدم في ذلك السير . فقد يغزو الجيش بقعة من الأرض وينتصر عليها وينتشر فوق أديمها ، ولكنه لا يملكها إلا حين ينشئ

فوقها الحصون ، فالألفاظ حصون الفكر . ولنضرب مثلاً آخر ، فإنك تعرف دون شك أن الأنفاق التي تحفر في أرض رملية ، لا تستقيم إلا إذا بنيت عقود من الحجر على مسافات لتمنع انهيار الرمل ، فاللغة بالنسبة إلى العقل كالعقود بالنسبة للأنفاق .

فالمنى يظل حائراً في الذهن ، حتى يستقر في اللفظة المناسبة ، فيثبت ويتركز ويتحدد . واللغة ضرورية للفكر ، حتى للتفكير الشخصى ، فالإنسان بينه وبين نفسه يفكر في أثواب من اللغة . قال صاحب البصائر النصيرية^(١) : « أما إذا جرى التعليم فيه [يعنى المنطق] على سبيل المحاطبة والمحاورة ولم يكن ذلك إلا بالألفاظ ، صارت الألفاظ أيضاً منظوراً فيها بالضرورة ، خصوصاً وفكر الإنسان قلما ينفك عن تخيل ألفاظ معها ، حتى كأن الإنسان يناجى نفسه بالألفاظ متخيلة إذا أخذ في التروى والتفكر » .

وقد نسأل أنفسنا ما هي الحاجة التي دفعت الإنسان إلى اختراع اللغة ، التي أفادتنا هذه الفائدة الكبرى في تركيز المعاني المجردة العامة ، والجواب عن هذا يسير ، فهذه الحاجة تمتد أصولها إلى المجتمع . أما الحيوان لأنه يستغرق في الأنانية ، ولأنه يعيش ليشبع رغبات الحس فحسب ، ولأنه يعمل لفائدته الشخصية ، فإنه يعيش لنفسه . فأكل العشب يعرف الأعشاب ويميزها ويدركها لياكلها ، ولكنه لا يبدى ميلاً إلى نقل هذه المعرفة لغيره من أقرانه . ففكره ينعكس على جسمه ، وينعكس على شهواته التي تمل عليه طريق العمل . فالحيوان عبد لشهواته الجسمية ، ولذلك كانت هذه الأنانية البعيدة الغور مانعة من ابتكار اللغة . ولكن الإنسان لحاجته إلى نقل الفكر من شخص إلى آخر ، اضطر إلى استعمال

(١) البصائر النصيرية ص ٦

اللغة . واللغات في أول أمرها بدأت بالأسماء والصفات دون الأفعال ، فكثير من لغات الشعوب المهمجية لا أفعال فيها
ولأجل أن ينقل الإنسان فكره إلى غيره ، يجب أن يتخذ وجهة نظر ذلك الغير ، ولذلك فهو يلغى من تفكيره المدركات الشخصية البحتة ، ويستبقى المدركات العامة التي يفهمها هو وغيره . فإذا رأى الإنسان شجرة ذات فروع كثيرة مورقة خضراء ، ويحاول أن ينقل هذا المعنى المحسوس المتصل بالصفات الكثير التفاصيل ، فإنه ينبغي أن يلغى التفاصيل الجزئية الخاصة من هذا الشكل ، ثم يضم في لفظ واحد ما يمثّل للجميع ؛ فاللفظ « شجرة » يدل على هذا الشكل جملة ، هذه الشجرة التي ليست بقصيرة أو طويلة ، مورقة أو جرداء ، خضراء أو يابسة ، في حقل أو في حديقة ، إلى اليمين أو إلى اليسار ، ثم يضيف العقل إلى هذا المعنى أو الاسم صفة تحدد ما يطلب الإنسان من فكر ، فيقول شجرة خضراء .